

## ثلاثة رسامين من المغرب

مخترع الحداثة والمطلق بجسده والمخلص لأبيضه



فاروق يوسف  
كاتب عراقي

ما الذي يجمع بين الجيلاوي الغرباوي ومحمد القاسمي وأحمد جاريد؟ مغاربة وتجريديون وغرباء عن أجيالهم، ذلك صحيح. غير أن هناك شيئا غامضا يدعيني إلى رؤية خيط بين بداية الحداثة الفنية في المغرب متمثلة بتجربة الغرباوي ونهايتها متمثلة بتجربة أحمد جاريد. كانت تجربة محمد القاسمي هي الوسيط بين التجريبتين. تغير الرسم في

المغرب بعد ظهور الجيلاوي الغرباوي. أما القاسمي فقد تفوق على أفراد جيله المغاربة من جهة سعة عالمه. وإذا ما تعلق الأمر بجاريد فإنه أقل باب الحداثة ببياض سطوحه النقي الذي استوعب الخامات كلها بخفة كما لو أن الرسم صار عبارة عن مزاج. الرسامون الثلاثة هم ممثلو ثلاثة أجيال فنية صنعت تاريخ الحداثة الفنية في المغرب. من خلال أعمالهم يمكننا التعرف على طبيعة التحولات التي شهدتها الرسم في بلاد لا يزال الفنان الشعبي فيها منغمسا بلذات معجزاته.

### الجيلاوي الغرباوي

## مخترع الحداثة الفنية في المغرب

### الرجل الميت على مقعد بباريس

رسوم الغرباوي والشرقاوي مقولة مختلفة تماما. هناك عناصر ومفردات ووحدات في الفنون الشعبية المغربية يمكنها أن تكون مصدر إلهام لبناء لوحة حديثة. لم يكن الفنانان معنيين بخناثة التراث والمعاصرة. كانت حياة الإنسان المغربي المتروك لقدره الجمالي المحض مزار دهشتها.

كان الغرباوي بحكم تمكنه الغربية منه أكثر أوروبية من الشرقاوي، غير أن أصدقائه الأوروبيين لم يكونوا من جهة ولاءهم الفنية أوروبيين تماما. كان ميتشو بالأخص قد استلهم أسلوبه التبعيقي من السورق الصيني المنوع يدويا وكان سولاج يدرّب يده على الكتابة باليابانية. الجيلاوي هو الآخر عرف كيف يستعيد مغربته من خلال الاستعانة بخيال الحرفيين المغربية.

يوهما، أي في السنوات الأولى من ستينيات القرن الماضي، كان المغرب يعيش مزاجا فنيا حداثيا، ذلك التفنانون شباب مثل محمد الميحي وفريد بلكاهية حول الغرباوي معتزين بفتوحاته الجمالية والفكرية على حد سواء. غير أن شخصية الغرباوي القلقة لم تكن ترى في ذلك التكريس إلا نوعا من الوقت وخيانة المكان.

### الشفاء الذي يدرز أموالا على لم يعاينه

ولد الغرباوي في مدينة جرف الملح التابعة لسدي بلقاسم في المغرب عام 1930. في سن العاشرة فقد أباه وأمه فكله عمه. التحق بعد ذلك بدار للأيتام ليتعلم مهنة يدوية. اخترق سنوات يتمه ليصل إلى التعليم الثانوي في مدينة فاس، من بعده التحق بمدرسة الفنون الجميلة التي غادرها بمنحة دراسية إلى باريس حيث درس الرسم في المدرسة العليا للفنون الجميلة أربع سنوات ألقها بسنة قضاه في أكاديمية جوليان. عام 1956 حصل على منحة من الحكومة الإيطالية لدراسة الفن، وفي سنة 1957 قبل دعوة من الأب دوني مارتان ليقم في دير توملين بمدينة أزرو، وهو المكان الذي سيعود إليه دائما بحثا عن العزلة والرغبة في أن يكون خالصا للفن. عام 1960 يعود إلى المغرب ولكنه بسبب شعوره بالملح بالقرية يقيم في فندق صومعة حسان بالرباط. تشق عليه حياته وهي ترمز للفشل بالنجاح. نجاح فني حيث صار اسمه مكرسا بين الأوساط الفنية وقيل عاطفي قادت إليه الفتاة الفرنسية التي أحبها. عام 1971 يعود الغرباوي إلى باريس ليودعها ميتا وهو جالس على مقعد عمومي في الثاني من أبريل من العام نفسه.

من أجل أن يغطي نفقات دراسته الفن كان يبيع الصحف نهارا، الرجل الذي قدر له أن يقيم في قلب العاصفة السريالية واحدا من أتباعها المخلصين ويكون صديقا لمبدعين كبار من نوع الشاعر والرسام هنري ميتشو والرسامين بييسير وريستاني وهارتونج وجان دويوفيه. ألم يتعرف على سولاج وهو الذي تحمل بعض لوحاته أثرا لافتا من تجربة ذلك الفنان المهم من جهة اهتمامه بضرية الخط؟

كل شيء في سيرة الفنان المغربي الجيلاوي الغرباوي يشير إلى قوة وعمق وسعة امتزاجه بالمشهد الفني الباريسي المعاصر الذي عاش تفاصيله بشغف مجنون بالحداثة الفنية التي قدر له أن يكون رائدها في بلاده، وهي صفة لم تقلل من شقاوته الشخصية، ذلك الشقاء الذي امتد مثل خيط مشدود بين سنوات طفولته الأولى ولحظة مماته جالسا على كرسي في حديقة عامة.

مشهد موته قبل ساعات من افتتاح معرضه الشخصي في باريس لن يتكرر، مثلما لن تتكرر تلك الثقة التي كان الغرباوي يهبها لخطوطه المرهفة والقلقة لتكون جسرا بين قارتين، بين ثقافتين، بين تاريخين من الصفاء الجمالي. حياته القصيرة لم تكن إلا مختبرا لغربة أضفت عليه طابع الإنسان المتمرد ووسمت قلقه واضطرابه وحيرته بسماها. عاش غريبا في باريس بالرغم من كل صداقاته العظيمة التي وهبته قدرا لافتا من الانفتان بالحياة وعاش غريبا في المغرب بالرغم من أنه كان يقف على الدرجة الأولى من سلم الإبداع، فهل كانت الغربة هي المقياس الذي يقيس به وقع خطواته على الأرض؟

### الرسام ومناقسه في سباق الحداثة

رسم الغرباوي أول لوحة تجريدية في تاريخ الرسم المغربي. حدث ذلك عام 1952. بعد ذلك بسنة رسم أحمد الشرقاوي للوحة الثانية، غير أن الفنانين كانا قد تقاسما سبق الريادة الفنية، لا من جهة عنايتهم بالتجريد ومحاولتهما تكريسه أسلوبيا فنيا، بل لأنهما جلبا تقاليد وقيما فنية جديدة لم تكن التربية الفنية التي تبنيتها المؤسسات التعليمية التي أنشأها المستعمر تقرب منها أو تشير إليها. لقد نسف الفنان الأسس المدرسية التي كانت قائمة على فكرة تقديس الحرف اليدوية، باعتبارها من وجهة نظر المستعمر الفن الوحيد الممكن في بلاد حُرْم شعبيها من نعمة الخيال. حملت



### محمد القاسمي

## رسام الجسد المطلق بخفته

بسبب شغفه المجنون بالرسم نسي أن يدرسه. ابن مكناس الذي رأى فيلاسكو لأول مرة وهو في سن التاسعة عشرة كان قد أصيب بهلع الرسم في وقت مبكر من حياته ولم يفارقه ذلك الهلع، بل على العكس تماما صار أسلوبه الشخصي في الرسم مرآة له.

### الكادح في خدمة الجمال

كان يرسم كما يعيش. فكرته عن الرسم هي ذاتها فكرته عن الحياة. أن يقف إلى جانب كبار جيله من الرسامين الذين درسوا الفن أكاديميا، محمد شعبة، فريد بلكاهية، محمد الميحي، ذلك حدث كبير، أما أن يتقدم عليهم من جهة قدرته التعبيرية فذلك هو الزلزال الذي ضرب الحياة التشكيلية في المغرب.

ربما يكمن السر في ذلك أن محمد القاسمي لم يكن ابن صنعته. كانت موهبته أكبر من كل صنعة، تلك الموهبة التي تحطت الرسم إلى الكتابة والشعر، فقدمته باعتباره وحشا. لم يكن في حقيقته هنري روسو جديدا. فالفرنسي روسو (1844 - 1910) كان مدعشا في حدود فطريته وهي التي ألهمت فنان الحداثة الرغبة في اكتشافه، أما القاسمي فقد كان رائدا ومغيرا في ما طرحه من أفكار فلسفية، لا تتعلق بتقنيات الصورة حسب، بل وأيضا بطريقة التفكير فيها. بمعرضه عام 1969 في قاعة باب الرواح وهي كبرى قاعات الرباط احتل القاسمي مكانة متميزة في المشهد التشكيلي المغربي، وهو الموقع الذي حافظ عليه عبر سنّ حياته التي تميزت بالكبح من أجل الجمال.

عن جدارة كان القاسمي عضوا في اتحاد كتاب المغرب، فهو شاعر متميز، غير أنه فضل ذات مرة أن يقف رساما إلى جانب عبد اللطيف اللعبي، الشاعر الذي قضى عشر سنوات في السجن بسبب أفكاره السياسية.

ماترة القاسمي الحقيقية تكمن في أنه تخلى عن كل شيء من أجل أن يكون رساما. لقد انتصرت سلطة الرسم في النهاية على كل السلطات، غير أن "مكائد الحياة" وهو عنوان الكتاب الأخير الذي كان يعمل عليه مستعبنا بقصائد اللعبي ولم يكمله قد انتصرت عليه.

إذا كان هناك فنان مغربي أكثر تمردا من القاسمي فانا لم أسمع به.

### القاسمي الفنان التفاعلي

ولد محمد القاسمي في مكناس عام 1942. لم تسمح له ظروفه المعيشية لدراسة الرسم أكاديميا، بالرغم من شغفه المدبر به. عام 1959 كان أول عهده في التعرف على تقنيات الرسم ومواده، حين شارك في دورة تدريبية للفن التشكيلي، نظمتها وزارة الشباب والرياضة. قبلها كان يتردد على مرسوم إحدى الرسامات الأوروبيات وكانت مقيمة في مكناس.

وصفه أحد النقاد بالمتصوف الأنيق في استعارة واضحة من الشاعر عبد الطيف اللعبي. لا بسبب الفياض البيضاء التي يرتديها باناقسة لافتة تهبه مظهر ملاك مستفهم، بل لأن فنه مسكون باجنحة خفية تحلق بها لغته التي تتميز برشاقتها وخفة مفرداتها. مغامرته التجريبية في الرسم تطوي على قدر لافت من التماهي مع لغة المتصوفة وهي تسعى إلى تدريب العين على أن تسمع ما يترلق على اللسان من إيقاعات لا تسمع بالأذن.

### ثقة بالرسم

يرسم كما لو أنه يكتب يومياته في مخطوطة كانت قد كتبت على هيئة طبقات من الكتابة والمحو المتداخلين. طبقات تقف بينها الرسوم في محاولة من الرسام لإيقاظ ما يتبقى بين يديه منها.

حين تعرفت عليه أخبرته أننا تاخرنا ثلاثة عقود على الأقل في صداقتنا. وكنت أقصد أننا كنا طوال تلك العقود نعمل الشيء نفسه. فإذا ما كنت في الكتابة قد أهملت السطر الأول فإن جاريد لم يقف في انتظار أن تكون كائناته مستعدة للظهور قبل أن يرسم. تقته بالرسم جعلته يرسم من النقطة التي لن تكون العودة منها ممكنة. يذهب إلى محترفه يوميا لكي يرسم لا لكي يجلس منتظرا الإلهام. يهبه العمل اليومي المستمر القدرة على أن يستحضر كائناته المهمة التي لا تفارقه. تبدو نزتهته على السطح البيضاء، في ثناياها، بين طرق متاحها كما لو أنها نوع من استعادة لغة طفل صامت.

### المتقن المنحاز إلى الجمال

ولد أحمد جاريد في الدار البيضاء عام 1954. بعد دراسته العليا في جامعة محمد الخامس بالرباط عين أستاذا للفلسفة وفيما بعد كلف بإلقاء دروس في علم الجمال بمدرسة الفنون الجميلة بالدار البيضاء.

كان نشاطه في مجال التنمية الثقافية لافتا، وهو ما ظهر من خلال تأسيسه لجمعية محترفات الفنانين عام 1997. بعدها عمل مستشارا في وزارة الثقافة ثم مديرا لديوان وزير الثقافة حتى عام 2005.

أسس برفقة الشاعر محمد الأشعري المعرض الوطني للفنون التشكيلية عام 2004. إلى جوار تلك السيرة العملية كان الرسام يؤسس لسيرته الفنية من خلال معارض شخصية أقامها في المغرب وعروض شارك فيها في مناطق مختلفة من العالم، كان آخرها معرضه الشخصي المشترك برفقة الرسام السوداني راشد ذياب في الكويت "قاعة بوشهري".

معادلة الرسام المثقف يمكن أن تكون مضمونة النتائج مع جاريد على مستوى إنجازها إلى الجمال الخالص. فمع أن جاريد لا يكثر كثيرا بالفكر الذي يسكنه فإنه لا يقلل في الوقت نفسه من قدرته الساحرة على تفكيك الألغاز وهو يرسم. متعة أن تراه وهو يرسم لا تفوقها أي متعة أخرى. وهو ما أخبرتة شخصيا.

## أحمد جاريد رسام الأناقة بشقاؤها

غير مرة رابته يرسم. وكنت أخشى الاقتراب منه لكي لا أكسر زجاج عزلته. كمن يتعبد كأن يتأمل لوحته ليستخرج من أعماقها ما تتكرم بتقديره من هبات بانخة في كرمها. كان منغيا في الـ"هناك" التي هي ليست استمرارا للـ"هنا" التي تجمعنا به كأننا يصلح للصدقة.

رسم جاريد بطريقة تمتع العين ولا تحملها تبعات أسئلة لم يجب عليها أحد. كان لديه من الانحياز إلى الرسم الخالص قدر يكفي للدفاع عن تلك المتعة البريئة. أخلص جاريد إلى صوت المتصوفة الخفيض مثلما خلس إلى الرسم التقليدي. كانت ريبته بالعالم الواقعي هي نفسها في الحالين.

ثراء خزانته اللغوية لم يعبر عن نفسه عن طريق بلاغة متحذقة وإنشاءات مرسلية. كانت قوته في الاقتضاب هي مصدر سلطته التي يمارسها على الفكرة وعلى تجلياتها اللاشكلية.

على هذا المستوى كانت المزاجية ممكنة بين عوالم الحلاج وابن عربي وعمر الخيام والنفري وبين عوالم تابيس ومارك روتكو وسي تومبلي. ما أنجزه جاريد تقنيا متأثرا بعمالقة الرسم الصفاي كان قد وجده متاحا في فكر المتصوفة.

وهو ما يسر عليه أن يهب الخشن ملمسا ناعما. وكان ذلك التحايل مدخلا لعالم تكون فيه المواد النباتية والتراب ومساحيق الصخور والمعادن وبشارة الخشب بمقاييس العنبة التي تمهد للانتقال إليه باعتباره ضالة وجود تصويري.

بمعنى أوضح فإن جاريد لم يسع إلى التوفيق بين ما نشأ عليه فكريا وبين ما شغف به فنيا، بقدر ما كان موهوبا في اكتشاف الخيط السري الذي يصل فكر المتصوفة وجوهه التجريدي في الرسم. بحيث كان من الممكن رؤية سي تومبلي باعتباره ابن عربي منتحلا أو معاصرا. بالنسبة إلى جاريد فإن كل شيء يظل مقبلا في حقيقته ما دام فعل الرسم مقبلا في توتره الذي يستلهم قوته من مواد الطبيعة.

مغربيا بطبعه كان جاريد. الروائح في رسومه تصل قبل الأصوات. لن تصل الكائنات. ولكن أي كائنات تلك التي تتسائل عن وصولها؟

اعتقد أن جاريد كان قد حسم أمره واقعبا في وقت مبكر من ممارسته للرسم. الرسام المثقف ينظر إلى العالم باعتباره متاهة من الكتب التي لا تزال الكائنات. ولكن أي كائنات تلك التي تتسائل عن وصولها؟

### يوم من أجل لأحد

تعدنا رسوم جاريد بفتح روعي، قد لا يكون قريبا على المستوى المادي. ولكن عالما لتلقته تلك الرسوم من بين تفاصيل صورته المشاعسة سيضعنا في قلب مغرب، لن نمل من إعادة صياغة أشكاله التي يصدمنا بتغيرها بما لا نتوقع من مشاعر.

